عندما رفض العرب نصف فلسطين!

مجلة أكتوبر - نوفمبر 1977

بقلم: موسى بدوى

لم يمض سوى ثلاثين عاماً، وهي فترة زمنية وجيزة في عمر الشعوب وسجل التاريخ، على ذلك اليوم التاسع والعشرين من نوفمبر 1947، عندما اجتمعت الجمعية العامة التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، لكي تقترع على المقترحات التي تقدمت بها لجان التحقيق، التي أوصت بتقسيم فلسطين إلى دولتين: الأولى عربية والثانية يهودية.. مع احتمال قيام اتحاد اقتصادي يجمع بينهما.

لقد كانت الدولة العربية ستضم كل الأراضي الواقعة شرقي ووسط فلسطين، ابتداء من أريحا حتى بير سبع. فضلاً عن الجزء الغربي من منطقة الجليل. وشريحة ساحلية كبيرة على طول البحر الأبيض المتوسط تسير بحذاء الحدود المصرية حتى البحر الأحمر، وفوق ذلك مدينة يافا وما حولها، ولو أن هذه كانت هي الأرض العربية التي تحيط بها الأجزاء التي سيحصل عليها اليهود.

أما الدولة اليهودية فكانت ستشمل المنطقة الشرقية من الجليل، ثم تمتد من حيفا إلى خليج العقبة. وتضم جانباً من صحراء النقب.

وأما القدس وبيت لحم، فإنهما لا يدخلان في هذا التقسيم. ولكنهما يوضعان تحت وصاية الأمم المتحدة.

وكان التقسيم سيضع نهاية للانتداب البريطاني على فلسطين. اعتباراً من أول يوم في شهر أغسطس 1948.

والذي يقارن اليوم بين نصيب العرب من الأراضي التي كانت تعرف يومئذ بفلسطين. وبين الأجزاء التي يحاول المجتمع الدولي الآن انتزاعه من براثن إسرائيل لكي تقام عليه الدولة الفلسطينية الحديثة. لابد أن يشعر بالفارق الضخم بين الحالتين.

إذا لم يقبل العرب مشروع التقسيم، فأضاعوا بذلك على أنفسهم فرصة العمر؟

اليوم يشبه البارحة

لابد أن نعود ثلاثين عاماً إلى الوراء، لكي نحاول معرفة الأخطاء التي وقعنا فيها. ونتعلم عدم ساعة الفرص المتاحة. حتى لا نبكي عليها بعد ذلك.

لقد خاض العرب جميعاً حروباً ومتاعب جمة طوال الأعوام الثلاثين التي انقضت. منذ معارضتهم للتقسيم الذي أقرته في ذلك اليوم المنظمة العالمية ورفضوه رفضاً قاطعا، فعطلوا بهذا مسيرة تقدمهم نحو الحضارة الحديثة. إن لم يكونوا قد تخلفوا حقيقة عن بقية الركب الإنساني أعواماً ثمينة، كان يمكن أن ينجزوا خلالها ما يرفع من مستويات الإنسان العربي بصفة عامة في كل اتجاه.

ففي ذلك الوقت كانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها منذ عامين، ومع نهايتها قفزت المشكلة الفلسطينية إلى مكان الصدارة، بعد أن ظلت دون حل فترة طويلة. وزادتها الأحداث التي وقعت خلال هذه الحرب تعقيداً.

ذلك أن الآلاف من اليهود الذين نجوا من معسكرات الموت النازية. كانوا يحاولون عبثاً وجود مأوى يلوذون به. وعند ذلك وسوس لهم الشيطان أن يتجهوا إلى فلسطين باعتبار أنها لهم أرض الميعاد.

كان تعدادهم في ذلك الوقت حوالي مليون ونصف مليون يهودي، ينتمون إلى كافة دول أوروبا. فأخذوا يتسللون سراً إلى الأراضي الفلسطينية. والواقع أن الصورة العامة لفلسطين كما كانت تبدو عام 1945 تغيرت تغيراً جذرياً عما كانت عليه قبل ذلك. فالثمانون ألف يهودي الذين كانوا فيها عام 1922. قد أصبحوا الآن ستمائة ألف. في مقابل أكثر من مليوني عربي من المسلمين. ومائتين وخمسين ألفاً من العرب المسيحيين.

أما تل أبيب التي كان سكانها اليهود ألفين اثنين. إذا بها تصبح مدينة حقيقة فيها مائة وسبعون ألفاً من السكان على حين استقبلت القدس ستين ألف مهاجر يهودي. فضلاً عن الذين تسللوا إليها منهم بطريق غير مشروع. فأقاموا مؤقتاً في المعسكرات البريطانية.

وعود تتجاوز ما تمناه اليهود

وفي ذلك الوقت بدأ اهتمام الولايات المتحدة بالقضية الفلسطينية. فقد تأثر الرأي العام الأمريكي بما حل باليهود على أيدي النازيين الأوروبيين. فأخذت الحكومة الأمريكية تحت ضغط الدوائر الصهيونية فيها والتي كان لها نفوذ ضخم. تقف صراحة إلى جانب اليهود. مؤيدة لتطلعاتهم إلى العيش في فلسطين وإقامة دولة خاصة لهم فيها. غير ملقية بالاً إلى ما في ذلك من جور وظلم على سكانها العرب الأصليين.

أما الإنجليز الذين كانوا أصل المشكلة بإصدارهم وعد بلفور، فإنهم فوجئوا بما وصلت إليه الأمور وحاروا في الطريق الذي يختارونة: هل يستمرون في العمل لتسليم فلسطين لليهود أو يعملون على أن تظل فلسطين لهم؟

حقاً إن تشرشل كان قد وعد صديقه وايزمان بالمساعدة في إقامة الدولة اليهودية. ولكن الحكومة البريطانية ظلت مرتبطة بما جاء في الكتاب الأبيض. الذي أصدرته عام 1939 وأهم ما فيه الحد من الهجرة اليهودية وجعلها مقصورة على خمسة وسبعين ألفاً يدخلون فلسطين خلال خمس سنوات، وحظر بيع الأراضي العربية لليهود، بغير الحصول على تصريح خاص من المندوب السامي البريطاني.

ولكن بريطانيا أدركت مؤخراً أن لها مصالح ضخمة في العالم العربي. وخاصة بعد أن تجمعت دول المنطق. لكي تؤسس جامعة الدول العربية التي أخذت على عاتقها الدفاع عن قضية فلسطين. فكان يهمها اكتساب عطف هذه المنظمة العربية الجديدة.

ولم يقدر لتشرشل الذي كان يعتبر رجل المواقف الحرجة أن يكون هو الذي يواجه هذا الموقف الجديد. وإنما الذين قاموا بذلك هم العمال الذين كانوا يساندون اليهود. قبل أن يصلوا إلى مقاعد السلطة في بريطانيا.

كانت وعودهم للصهاينة تتجاوز كل ما كان هؤلاء يتمنون الحصول عليه. فلما كانت الانتخابات في بريطانيا عام 1945 التي نجح فيها حزب العمال. دخل معهم إلى مجلس العموم ستة وعشرون نائباً يهودياً بوصفهم أعضاء الحزب.

وعندما حل آتلي وبيفن في الحكومة تشرشل وايدن. رفض اليهود في تل أبيب الشوارع. فانتصار العمال انتصار لليهود.

صمت عربي.. وإرهاب صهيوني....

وراح زعماء الصهيونية إلى لندن يهنئون العمال بهذا النجاح. وطالبوا في نفلس الوقت بإلغاء الكتاب الأبيض. وإعلان فلسطين "كومنولث" يهودي. لكن حزب العمال وقف موقف المراوغة وتملص من الوعود الجميلة التي كان يكيلها لليهود.

ولم يكن ذلك حرصاً بطبيعة الحال على == عرب فلسطين. أو رغبة في استرضاء الدول العربية الأخرى. وإنما بغية استيفاء = البريطانية في المنطقة إلى الأبد.

وكما لو أن كل ما تصنعه السياسة البريطانية يحقق أحلام الصهيونية. فإنهم بهذا الموقف == اليهود في فلسطين يلجأون إلى أعمال الإرهاب مع الجنود الإنجليز. الأمر الذي == إلى أن اليهود اعتادوا على الأسلحة و المعارك. وشراء الأسلحة وتكديسها الأسلحة التي لم يفطن عرب فلسطين ضرورة الحصول على مثلها والتي == اليهود ضدهم بعد ذلك.

وفي يوم 13 أكتوبر من ذلك العام ==========.

أراد السوفيت أن يجعلوا المعونة العسكرية لسوريا نموذجا للعلاقات بينهم وبين دول الشرق الأوسط.. فالدولة التي تعادي مصر وتمشي ورائهم في كل اتجاه هي التي يغرقها السوفيت بالدبابات والطائرات قبل حرب أكتوبر وأثناءها وبعدها...

قد حاول السوفيت أن يختاروا لهم رجلا في مصر. مرة أيام جمال عبد الناصر فحاولوا ذلك مع عبد الحكيم عامر وفشلوا.. وحاولوا مع علي صبري وشركاه فوضعهم السادات جميعاً في السجن.. على خلاف ما توقعه بوناماريف.

ثم بعثوا لمصر بنصف صفقة سلاح في موعدها على خلاف عادات السوفيت.. وكان ذلك تدعيماً لمركز الفريق أحمد إسماعيل واستدراجاً له، لعله يكون رجل الإنقلاب الشيوعي القادم.

وكان حزن الرئيس السادات علي حافظ الأسد عظيماً. فقد انحدر من صديق إلى حزبي إلى بعثي. حتى كانت مبادرة السلام فانكشف الحقد على السادات ومصر في أوضح صور!.

وللضيق من تسليح أمريكا لمصر ببضع طائرات: بقية في موقف الجزائر بعد ذلك!

في حديث تليفزيوني أمريكي لم يذع بعد، أبديت رأيك في عدد من الزعماء السياسيين في العامل..ولكن ثلاثة منهم كان رأيك فيهم متشابهاً. وكان رأيك أقرب ما يكون إلى الشعور بالأسى والأسف عندما تحدثت عنهم.. وإن كانت رنة الأسى هذه قد اختلفت حدتها أو أسبابها عندك .. ثلاثتهم هم: الرؤساء نيسكون وبرجينف وحافظ الأسد.. فما هي بالضبط أسباب ذلك؟

أجاب:

قلت هذا فعلا... وكانت للثلاثة مكانة خاصة عندي ولأسباب مختلفة ..

أما الرئيس الأمريكي نيكسون فقد كان صديقاً وصادقاً "لم يكذب في شيء، ولم يخذلني في شيء طلبته. ولذلك كانت حفاوة الشعب المصري به عندما جاء إلى القاهرة قمة في لم ير لها مثيلاً في حياته- باعترافه هو . ولم ير الشرق هذه الحفاوة نظرياً أيضاً.

وقد أحزنني ما أصاب الرجل في بلاده وبأيدي مساعديه في الصحف الأمريكية وقد حاولت الاتصال به في أمريكا في رحلتي الأخيرة. ولم أتمكن ولكن عندما سافرت إلى ميونخ اتصلت به وبالرئيس فورد أيضاً..

أما الرئيس بريجينف فهو الرجل السياسي الوحيد في القيادة السوفيتية وهو الرجل الذي أشهد له بأنه كان يتدخل في حل الأزمات التي كثيراً ما وقعت بيني وبين بودجورني وكوسيجين.. وكلاهما من خبراء السياسة الحزبية أو أنهما حزبيان فقط وكثيراً من اختلفت معهما بشدة وبحدة. وكان بريجينف هو الذي يستطيع في الوقت المناسب أن يتدخل وأن يفصل في المنازعات بذكاء وفهم سليمين.. وقد أحسن السوفيت تقدير مواقفهم عندما استبعدوا بودجورني هذا فقد كان عنصر تشويش وتعكير صفو لأية علاقة بين السوفيت ومصر.. ولابد أن السوفيت سوف يفعلون نفس الشيء مع رجل آخر اسمه بوناماريف.. فهو أسوأ الناس عندهم. وهو أسوأ الأدوات التي يستخدمونها في نقل المعلومات الخاطئة والأحكام المتعجلة وقد ثبت خطؤه عشرات المرات في مصر وفي غيرها.. ومن أخطائه أنه كان يتوقع انقلاباً شيوعياً يطيح بي، وإذا به يفاجأ

بأن كل عملائه (علي صبري وشركاه) قد أودعوا السجن ولا يزال بريجينف هو أحسنهم جميعا..وإذا عادت العلاقات العادية مع مصر إلى حجمها العادي وعلى أساس من الاحترام المتبادل، فسوف يكون الفضل في ذلك إلى هذا الرجل وإلى حكمته وحنكته السياسية..

يبقى حافظ الأسد.. وإن حزني عليه عظيم، فليس كثيراً في الدنيا أن يكون للإنسان صديق. فما أقل الأصدقاء. ولكن القليل منهم كثير جداً.. بل إن ألف صديق يجعل الدنيا مشرقة بالأمل والحب والوفاء وإن عدواً واحداً لكثير جداً- هكذا يقول لنا شعراؤنا وحكماؤنا.

ولم يفهم الناس كثيراً مدى حزني على فقد جمال عبد الناصر. فقد كان صديق العمر كله.. ولكن الظروف كانت قاسية عليه وعلينا. وشاء القدر أن أرث متاعبه وهمومه. وقد اختلط على الناس فلم يفرقوا بين ضيقي بالظروف وبين حزني عليه.. فلم يعرفوا إن كنت حزيناً عليه أو حزيناً على مصر...

ولكن طبيعتي تؤكد كل يوم أن أروع ما في الناس: الصديق الصدوق. وكان جمال عبد الناصر ذلك الطراز النادر من الزعماء.

وقد اتخذت حافظ الأسد صديقاً. وعندما اشتدت الخلافات بين مصر وحزب البعث السوري. كنت حريصاً على أن يظل حافظ الأسد بعيداً عن دائرة الخلاف الحزبي الضيق. كنت أراه صديقاً ولكنهم يريدونه في سوريا زعيماً حزبياً.. أو حزبياً فقط. فكان لهم ما أرادوا، ولم يكن لي ما أردت معظم الوقت.

وقد أمضيت سنوات عديدة أفضل بين حزب البعث وحافظ الأسد... وكان سبب ذلك أنني أعرف حافظ الأسد وأعرف الظروف القاسية الملتوية التي تدفعه في كل اتجاه.. والتي تتحكم في علاقاته وصداقاته.. وكنت أرى أن "التركيبة" السياسية في سوريا مختلفة تماماً عن "البنية" السياسية والاجتماعية في مصر.. وكنت أعرف جيداً أن تاريخ العلاقات بين البلدين من أيام جمال بعد الناصر عنصر هام جداً في تشكيل مجرى الأحداث وتعقيد العلاقات وتقييم المعاني والأهداف بين البلدين.

ورغم هذا الضباب والرعد والبرق والجليد والطوفان بين مصر وسوريا، فإنني كنت أجد ألف سبب لكي أعذر حافظ الأسد.. كنت أرمي له بأطواق النجاة.. وكنت أقيم

له جزرا من الأعذار والمبررات أنقله إليها سالماً كريماً.. وكنت حريصاً دائماً على أن استبقى حافظ الأسد عالياً كبيراً في عيني...

وأعتقد أن هذا ما تحتم الصداقة بين وبينه...

ولهذه الأسباب كان أسفي عليه عميقاً عندما تقلص حجمه وخف وزنه وضاق أفقه وارتضى أن يكون حزبياً وأن يتضاءل حتى أصبح بعثياً– وليس بعد ذلك هوان لرجل مثل حافظ الأسد!

إنها صورة بشعة أن يتحول أعز الأصدقاء إلى معسكر الأعداء!.

سيادة الرئيس: هناك أسباب كثيرة تساق لتفسير موقفك من الرئيس حافظ الأسد. من بين هذه الأسباب: التفسير النفسي للعلاقات بين الزعماء.. وبسرعة يتحول هذا الموقف النفسي إلى موقف قومي..وذلك لما لهؤلاء الزعماء من مقدرة خاصة على تحويل الرأي العام وفقاً ولجهات نظرهم.. فهل يمكن أن يقال أن الأسباب النفسية عند حافظ الأسد قد تحولت إلى أسباب قومية فكان هذا..

www.anwarsadat.org